# الفلسفة الفانونية: رابط ثقافي بين الجزائر والعالم

# Fanonism philosophy : A cultural link between Algeria and the world

كمال بوناب [1]

تاريخ الاستقبال: 00 / 00 / 2019 تاريخ القبول: 00 / 00 / 2019 تاريخ النشر: 00 / 00 / 2019

**ملخص:**

يهدف هذا المقال إلى إثبات أن فرانتز فانون ليس مجرّد كاتب يمجّد العنف، كما يروّج له، ففي حين أنه أدرك الأهمية النّفسية والرّمزية التي يحظى بها العنف المضاد للكولونيالية، فهو أشار أيضا إلى أنّ العنف إشكالية، وذلك في سياق انتقاده الشّديد للسّياسات الضيّقة المتعلّقة بمعاداة العنف والكفاح الوطني.

يخلصُ المقال إلى أنّ فانون، صاحب كتاب "معذّبو الأرض" والمنظّر السياسي للتحرّر الوطني وحوارات ما بعد الكولونيالية، جرى حجبُه وحلّ محلّه فانون الذي يهتمّ بقضايا العِرق والتّمثيل.

**الكلمات المفتاحية:** الفانونية؛ الحوار الثقافي، الجزائر؛ ما بعد الكولونيالية.

***Abstract:***

This article aims to prove that Frantz Fanon is not Simply a glorifier of violence, as promoted, while herecognized the psychological and symbolic importance of the anticolonial violence, heindicated that violence was also a problematic.

This problematic in the context of Fanon'spowerful critique of narrowanti-imperialist and nationalist politics.

This article concludes, the Fanon of « The wretched of the earth », the political theorist of national liberation and post-colonial dialogues, has been eclipsed by the Fanon concerned with race and representation.

***key words***: Fanonism ; Cultural dialogue ; Algeria ; Post-colonialism

[1] أستاذ مساعد"ب"، جامعة باجي مختار- عنابة(الجزائر)، bounab.kam@live.fr

**مقدّمة:**

كان فرانتز فانون موضع تصنيفات لا تُحصى؛ فأحيانًا أشير إليه على أنه فيلسوف إفريقيا ونبي العنف؛ وأحيانا صنّف سارتريًا (نسبة إلى سارتر)، كما أُعتبر ماركسيا، هيغليا، وحتى لاكانيًا (نسبة إلى عالم التحليل النفسي جاك لاكان)؛ وُسمَ بالاشتراكي المعتنق لمذهب الزّنوجة والدّاعي للوحدة الإفريقية، وفي مجال الدراسات الثقافية ونظريات العلاقات الدولية فإنه يعتبر مؤسّسًا لمدرسة "مابعد الكولونيالية".[1]

تمتاز أعمال فانون بأنّها تمزج ببراعة بين التجربة المعاشة ولغة التحول الثوري؛ فمؤلّفا " جلد أسود وأقنعة بيضاء" و"مُعذّبو الأرض" لم يكونا مجرّد محاولة لإيصال فكرة "جزائر جديدة" إلى جمهور، معظمه فرنسي-، فحسب، بل أكثر من ذلك نجحا في رسم مسار نزع الكولونيالية من عموم إفريقيا؛ بمعنى أنّ فرانتز فانون مثّل همزة وصلٍ ثقافية بين ضفّتي المتوسّط؛ بناءً عليه تكون إشكالية البحث على الشكل الآتي: **ماهي معالم تحوّل الفانونية من فلسفة جزائرية إلى ثقافة متشعّبة وممتدّة في إطار الحوار بين الأنا والأخر ضمن مقاربات ما بعد الكولونيالية؟؛** إن الإجابة عن هذا السؤال منوطةٌ بطرح فرضيات يتطلّب صلب الموضوع التأكّد من صحتّها:

إنّ تحرير الشعوب اجتماعيا، اقتصاديا وسياسيا يرتبط في المقام الأول بصحّتها النفسية وتحرّرها الفكري.

إنّ الحوار الدولي في ضفّتيه "شمال ـ جنوب" ينقادُ ثقافيا وفق مقاربة ما بعد الكولونيالية التي يعود الفضل لـ فرانتز فانون في تطويرها، وتحويلها إلى نظرية قائمة بذاتها.

يهدف هذا البحث إلى الاحتفاء بتَركة فانون الفلسفية، وتبيان أهمية تجديد الانفتاح على الفكر الثوري، لما له من أهمية في إدراك مواضع عدم اليقين بشأن التفكير في إنشاء مجتمع جديد يستدعي سياقًا نضاليا يتماشى وتحدّيات الحاضر المرتبطة بالماضي الاستعماري؛ وقد تمّ توظيف مناهج ومقاربات البحث التالية:

الأسلوب التأويلي في التحقيق العلمي: الذي يستنبط من الفلسفة والتاريخ والقانون، بعيدا عن المرافعة المتشدّدة للنزعة الكمّية في العلم.

مدخل التحليل الثقافي المقارن: عبر دراسة معايير تعمل على إعلاء روح الكولونيالية واستمرارها في علاقات مختلف الأنساق، حتى بعد اندثار الاستعمار.

مدخل تأريخ المعرفة: انطلاقا من الاعتقاد بأنّ النّظرية دوما لشخص ما ولهدف معين، فإن هذه الدراسة تسائل هيمنة المنظورات الغربية على تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتفتح المجال للمساهمات المُهملة.

الانتقائية التحليلية: وذلك بالعودة إلى فلسفة العلم لـ بول فاير أبوند: "كل شيء يفي بالغرض" مادام أنه يخدم غرض البحث، فسلطة المنهج الحادّة من شأنها أن تحدّ من قدرات التجديد والابتكار.

## أولا ـ إسهامات فانون في الجزائر

### 1 ـ نظرية العنف والثورة الجزائرية:

قال الرئيس أحمد بن بلة في فرانتز فانون "لم يكن فانون رفيقًا في المعركة فحسب، بل كان مرشدًا وموجّهًا؛ لأنه ترك لنا من إنتاجه الفكري والسياسي ما هو ضمانةٌ للثورة الجزائرية"؛ إنّ المستعمَر في فلسفة فانون شريكٌ غير واعي في ما يربطه من رواياتٍ بباقي البشر؛ جرتْ برمجتُه على عدم إلحاق الأذى؛ شيئًا من هذا حدثَ في عملية استعمار الكاريبي، الشرق الأوسط وإفريقيا؛ لقد عبّر فانون عن ذلك بـ "الرجل الأبيض يخلق الزنجي"، والمستعمِر مسؤولٌ عن استدامة النقائص الاقتصادية وتعميق القيود السياسية؛ ولكن ما إنْ يستفيق المستضعَف من صدمته سيخلق حتمًا جوّا من التعاطف الرهيب، بل إنّ أعمال العنف واسعة النطاق التي سيُوقعونها على البشر تصبح مبرّرة أخلاقيًا؛ هم في النهاية سيكتشفون وعيهم الذي يقودهم إلى الهروب من مأزق السّجن؛ يُعرّف فانون المسار بمعادلة "الآواخر سيصبحون الأوائل"، ولا يمكن أن تكون لهذه المعادلة قائمة إلا بعد قتالٍ مميتٍ حاسمٍ يخوضه طرفا النّزاع فـ "المستعمَر أدرك منذ ولادته أنّ هذا العالم المضيّق، المزروع بأنواع المنع، لا يمكن استبداله إلا بالعنف المطلق"[2]؛ فالعنف أستاذٌ لـ "الحقائق الاجتماعية" يسمح للمستعمَر بأن يصبح صانعًا للتاريخ وليس متلقيًا له فقط؛ لا سيّما إذا كان (العنف) منظّمًا وجماعيًا؛ إنه يهدف إلى خلق هوية جماعية جديدة للمتمردين؛ بإمكانه أن يخترق جلد المستعمِر الأبيض، ذلك الجلد الذي يُنظر له على أنه علامة الاختلاف والتفوق؛ ستظهر إذن حقيقة اجتماعية جديدة: المستعمِر هو أيضًا عُرضة للموت، والمستعمَر قادرٌ بدوره على العنف؛ سيكتشف المواطن أنّ حياته، أنفاسه، قلبه النّابض مثله مثل المستوطِن؛ العنف سينهي حتمًا الوضع الاستعماري، ويفتح المجال للنّزعة الإنسانية التي يتعرّف فيها الطرفان إلى بعضهما بوصفهما كائناتٍ حرّة.[3]

لا يكتفِ المستعمِر بالقول أنّ القيم قد نزحتْ عن المجتمع المستعمَر، وإنما هو يعلن أنه لا سبيل إلى نفاذ الأخلاق إليه، فالمستعمَر هو الشر المطلق، إنه عنصر متلِفٌ يحطّم كل ما يقابله؛ مخرّبٌ يشوّه كل ما له صلة الجمال، هو مستودعُ قوى شيطانية، أداة لقوى عمياء لا وعي لها ولا سبيل لإصلاحها؛ يلخّص ذلك ما قاله أحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية "إنّ علينا أنْ لا نلوّث الجمهورية بإدخال الشعب الجزائري إليها"[4]؛ ولتثبيت وجهة النظر هذه يعمد النظام الاستعماري إلى أن يستمد مشروعيته من القوة؛ لا يفتأ أن يُعبّر عن ذلك بشيء بعينه "نحن هنا بقوة الحراب"، حينها قد تكون هناك أعمال قمع ضخمة تُوصل الكفاح المسلح إلى "النقطة التي لا عودة بعدها"، ففي الجزائر أودتْ أحداث فيليبفيل 1955 باثني عشر ألف ضحية؛ الجميع أدرك عندئذ أنْ لا مجال لأن يرجع الأمر إلى ما كان عليه؛ فلا بدّ من تعبئة الشعب وقذفه في اتّجاه واحد لا غير؛ العنف وحده هنا يطهّر الأفراد المستعمَرين ويخلّصهم من رجز مركّب النقص الذي عاث فيهم فسادا، ويعمل على ردّ الشجاعة إليهم وتحريرهم من موقف المشاهد أو اليائس.[5]

إنّ الوصف الأنسبَ والأكثر تهذيبًا هو أن يُوسم فانون بـ "القارئ الثوري لـ هيجل"، هذا الأخير رأى بأنّ رغبة الإنسان في نيل الحظوة والتقدير قد زَجّتْ به عبر التاريخ في معركةٍ دموية من أجل الاعتراف والمنزلة، بيْدَ أن العلاقة بين السيد والعبد في فينومولوجية الروح لـ هيجل لا تحمل بالضرورة توصيفًا دقيقًا لما رمى إليه فانون، ففي جميع الحالات لا يمكن للمستعمِر أن يكون إنسانًا لأن هيمنته تجرّده من ذلك، وعليه تتطلّبُ الحرية

خلقَ عالمٍ جديد، وهو أمرٌ غير ممكن الحدوث دون عنف[6]؛ إلا أنّه وبالنسبة لنتائج العنف، تذهب الفيلسوفة حنّة أرندت إلى أن فانون قد بدى أكثر تحفّظًا من أتباعه، ويبدو أن الفصل الأول من كتابه "معذّبو الأرض" الموسوم بـ "عن العنف" هو الذي قُرِيء دون غيره على نطاق واسع؛ فانون نفسه كان يدرك أنّ هذه الوحشية الصّرفة والشاملة، إنْ لم يُعمد إلى مقاتلتها على الفور، ستؤدي بالضرورة إلى إلحاق الهزيمة بالتّحرك الصاعد خلال أسابيع معدودة[7]؛ بل أنّ العنف قد يكون مطية لـ "مقاولي الحرب" لتحقيق أرباح طائلة على حساب ضحايا الشعب، فالمناضل الذي جابه آلة الحرب الاستعمارية بوسائل بدائية سيكتشف أنه ساهم في خلق جهاز استغلالي آخر، إنه اكتشافٌ مؤلم ومثير، فلقد حلّ محلّ الوضوح الخيالي اللاواقعي (ثنائية: أشرار/ أخيار) ظلامٌ يجزئ الشعور[8]، لذلك، وعلى الرغم من أنّ العنف الحقيقي سيظل الطريقة الأكثر مباشَرة للتخلص من الوعي، إلا أن ذلك لا يعني الوثوق التام في "وهم الفورية المتصّل عادة باستعراض المواطن الأصلي لعضلاته"، فالعبرة تقتضي بأن يأتي النجاح العسكري ثانيًا عقب معركة الأفكار، لذلك ليس من الغريب أن يُصرّ فانون على أن إخضاع العسكري للسياسي هو أساس إقامة علاقات مع الشعب[9]، ومن شواهدِ أنّ فانون كانت له ملامحُ عدم الارتكان المطلق إلى العنف في كتاباته استدلاله بزميله تشارلز جيروميني الذي غادر بليدة هو الآخر، بعد أن ضاق ذرعًا من الليبرالية الفرنسية التي تحدّثت عن الحرية لكنها لم تفعل شيئا لوقف عنف المستعمِر في الجزائر؛ كان ذلك في الفصل المعنون بـ "الأقلية الجزائرية الأوروبية" كدليلٍ على نهضة ضمائر الأوروبيين الجزائريين ونُصرتهم لنضال جبهة التحرير الوطني من أجل الاستقلال وأنّ ذلك نذيرٌ على انتهاء الحقبة الكولونيالية.[10]

## 2 ـ فانون ومدرسة الجزائر في الطب النفسي:

شهدت الجزائر في الفترة الممتدّة بين 1871 و1918 أعنفَ عملية تدميرٍ لمجتمع أصلي؛ اقتضى الأمر وقوع نوعٍ من "الهولوكوست" لإخماد الثورات؛ كتبَ جون رويدي في ذلك أنّ ردود فعل المستعمِر على التمرّد كانت بطقوسٍ عربيدة من الانتقام؛ في هذا السّياق بالذات جرى تطوير نظريات "العقل الجزائري"، ومع ازدياد الإخضاع تزايدت معه عملية "التصنيف العرقي"، أين صُنّف الجزائري (والإفريقي عموما) كـ (الآخر) للأوروبي المتكامل، هذا الجزائري جبري (مبالغٌ في الارتكان للقضاء والقدر) كما وصفه أنطوان بورو، يُذكّر بكتلةٍ من البدائيين السُّذّج؛ لم يلبثْ أن جاء الرد من فرانتز فانون الذي اعتقد أنه حين ينظر إلى أوروبا وطُرزها وتقنياتها فإنه لا يشاهد إلا تعاقب أجيالٍ من الرجال وسلسلة متتالية من جرائم القتل، وبرجوازية تعلن المساواة بين البشر ـ في حين لا تتوان عن ارتكاب الجرائم في كل مكان، لقد كانت "جزائر فانون" منبتًا للقوة الدافعة للنظرية ما بعد الكولونيالية[11].

لاحظ فانون أنّ إدخال الممارسات الطبّية الغربية سارَ يدًا بيد مع الاختراق العسكري، لدرجة أنّ الطبيب أصبح مبشّرًا بالمشروع التّمديني الفرنسي، ومع وصوله إلى مستشفى جوانفيل (بليدة) شرعَ فانون في إرساء معالم مشروعه الهادف إلى "أنسنة البيئة في المستشفى" بدءًا من نقده لمقالة بورو "الظاهرة شمال إفريقية"، حيث ناقشها أوّل مرة في مقالة كتبها لمجلة Esprit معنونة بـ " المتلازمة شمال أفريقية" معتبرًا أنّ التبادلية من وجهة نظرٍ علاجية قد سُدّتْ عليها السُّبل في ظل الاختزال المسبق للشمال الإفريقي، ليس إلى جسد فقط، بل تشييء reification ذلك الجسد وتحويله إلى "فكرة منفّرة"، مستنتجًا أن الظاهرة شمال إفريقية لا تعدو أن تكون

شكلًا من أشكال "عقدة التقص" الناتجة عن البيئة الاجتماعية العامة، ومعالجتها لا تكون إلا بتغيير شامل؛ فما كان لـ أنطوان بورو شيئًا متسرّع المزاج وعنيفا، مَثّلَ لـ فرانتز فانون خصمًا يقاوم الحكم الاستعماري.[12]

بقدومه إلى الجزائر في نوفمبر 1953 أصبح فانون واحدًا من أربعة أطبّاء في مستشفى بليدة، والذي كان يكفل علاج 2000 مريض؛ هذا المرفق كان الوحيد في الجزائر المختص في الأمراض العقلية على المدى الطويل؛ فانون لم يُبد رضًا بما رآه عند وصوله، فالمرضى عُوملوا كالسجناء، والمسلمون منهم عُزلوا عن الأوروبيين؛ لم يكن ذلك ليتساند مع هَوس فانون بالصّلة بين البشر، وأنّ الرابطة ستسحق جميع الاختلافات؛ كان فانون مسؤولًا عن جناح يتكوّن من 164 امرأة أوروبية وعشراتٍ من المسلمين الذّكور، وقد قدّم لزملاء مهنته سلسلة من التغييرات المثيرة شملت عقد اجتماعين أسبوعيين بين الأطباء والمرضى لمناقشة تسيير المستشفى، حيث يتمّ تشجيع المرضى على التعبير عن آرائهم؛ إضافة إلى إنشاء صحيفة أسبوعية يُديرها المرضى وكذا تنويع النشاطات الاجتماعية والثقافية عبر عرض الأفلام والأداء الموسيقي لزيادة التفاعل والاندماج المُجتمعي فيما بين المرضى، ناهيك عن إدخال تقنيات العلاج المهني لزيادة النشاط الإنتاجي، كما تمّ رفع العديد من القيود التأديبية والسّماح للمرضى بالتجوّل في أجزاء ،كانت محظورة، من المنشأة؛ قد لا تبدو هذه الإجراءات ثورية في عالم اليوم، إلا أنها لم يسبق لها مثيل في وقت فانون، لا سيما في مستشفيات شمال إفريقيا، وقد استدعى الحرص على تطبيقها اثنتي عشرة ساعة يوميا من طاقة ووقت فرانتز فانون.[13]

من المثير للاهتمام العناية برسالة الاستقالة التي قدّمها فانون إلى روبرت لاكوست، الحاكم العام للجزائر، في أواخر عام 1956، حيث أصرّ على تعريف الجنون بأنّه وسيلة يفقد بها الإنسان حريته، وأنّ الطب النفسي تقنية تقترح مساعدة المرضى على أن لا يبقوا غرباء لفترة طويلة عن بيئاتهم المعاشة، غير أن البنية الاجتماعية، يضيف فانون، في هذا البلد (الجزائر المستعمرة) تعرقل أي محاولة لإعادة الفرد لوضعه الطبيعي، لذلك يجب استبدال الهيكل الاجتماعي الذي يدفع أعضاءه إلى الحلول اليائسة و العاجز عن توفير المؤسسات التي تخدم حاجيات البشرية[14]؛ إنه وبفضل فانون وَقَفَ العالم على متناقضات الطبّ الاستعماري، فالجسم الذي يتمّ تطعيمه اليوم هو ذاته الذي يتعرض للعنف والتعذيب في اليوم الموالي، والشخص الذي يُجري جراحةً علاجية أو يقوم بتوزيع دواء لتخفيف الآلام، هو نفسه الذي يُديرُ في الغد عملية التعذيب أو الحقن بمصل الحقيقة.[15]

## ثانيا ـ الفانونية كمقاربة حوار حضارية في العلوم الإنسانية والعلاقات الدولية

### 1 ـ نحو فلسفة فانونية في العلوم الإنسانية:

تُعمّق أشكال الفانونية، مثلما تطوّر، خطاب النظرية النقدية الإفريقية، بل أنها تطرح أبعادًا جدلية جديدة لم تتطرق لها نصوص ويليام دو بويز*، فالانتقال الحرج للدراسات الإفريقية من الوحدة الإفريقية إلى القومية السوداء، من الماركسية إلى النسوية السوداء ومن السياسات الراديكالية السوداء إلى علم النفس الاجتماعي الأسود، استند بالأساس إلى انخراط فرانتز فانون في تقاليد الفكر الكلاسيكي التي شكّلت وغذّت الفلسفة الفانونية، بمقابل ذلك كانت هذه الأخيرة قاعدةً أفرزت مخرجات فكرية معاصرة؛ غير أنه سيكون من الخطأ الاعتقاد أن الفلسفة الفانونية خرجتْ مُشعّة وضّاءة من يد مبدعها دون أن تصادف ردود فعل متباينة، حيث

وضع ريلاند راباكا خمسة مراحل مرّت بها الدراسات الفانونية؛ وَسمَ الأولى بأنها أجوبة الليبراليين والمحافظين على فانون (حنّة أرندت 1970، باولو فريري 1993، 1998)، أما المرحلة الثانية فقد شهدت ازدهار أعمال السيرة الذاتية عن فانون ( بيير بوفيي 1971، بيتر جيزمار 1971، إيرين جوندزيي 1973)؛ تمحورت المرحلة الثالثة حول أهمية أفكار ونصوص فانون للنظرية الاجتماعية والسياسة بمساهمات من حسين آدم 1974، ليديجا أليكسيفنا 1979، جون ألان 1986؛ في حين دارت المرحلة الرابعة حول صعود ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية (إدوارد سعيد 1993، هنري لويس غايتس 1999، بينيتا باري 2004)، وجسّدت المرحلة الخامسة والنهائية اِلتزامات أفكار فانون تجاه باقي مجالات الدراسات الإنسانية.[16]

شَرحَ فانون فلسفته على أنها تأكيدٌ غير مرتّب لفكرة أصلية تُقترح على أنها مطلق؛ بمعنى أنه لا يرفض تماما المشروع الإيجابي للحضارة الغربية المتمثل في تحقيق المساواة بين البشر، إلا أنه على عكس ادّعاءات التنويريين الأوروبيين لا يقدّم رؤى شاملة حول التطور الإنساني؛ وحده النشاط الواعي التأملي قادرٌ على مناقشة مسألتيْ "الجنس البشري" و"رسكلة أنسنة الإنسانية"[17]؛ إنّ مثل هذا الوعي الوطني المناهض للعنصرية والرّاغب في الانفتاح على حقيقة العالم قد ألقى بظلاله لاحقًا على تشعّباتٍ ومشاربٍ فكرية متنوعة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ومن ذلك:

**الفانونية النسوية:** تبدو علاقة فانون مع النّسوية ودراسات المرأة متناقضة ومثيرة للجدل، فمن جهة يبدو ملتزمًا تجاه تحرير المرأة، مُدرجًا إياها ضمن برنامجه الثوري لإنهاء الاستعمار، ومن جهة ثانية يظهر مناقضا لأفكاره التقدمية، أين تسيطر عليه الرجعية أو التّحيز الجنسي، لا يختلف في ذلك عن كبار الفلاسفة الذين كانوا عرضة لهذه التهمة (كانط، هيغل، ماركس، نيتشه ، هايدغر)[18]؛ وقد اتّخذ فانون من الرّوائية المارتينيكية مايوت كابيسيا نموذجًا للمرأة الإفريقية ليكشف عقدة السّواد التي تعاني منها في روايتها "أنا مارتينيكية"؛ فهي تحاول الزواج من الأبيض والتشبّه بالفتاة البيضاء في طريقة لباسها، تسريحة شعرها، وحتى تبييض بشرتها بواسطة الزّيوت وماشابهها؛ إنّ سعي الهامش للتشبّه بالأنا المركزية دليلٌ على ترسّخ الرموز التي غرسها المهيمِن في ذهن المهيمَن عليه، والتي تتضافر لتُشكّل هويته[19]، وبشكلٍ عام توجّهت إسهامات فانون النسوية لتندرج ضمن تصاميم "باريس السّوداء" ضمن مقاربة نهضة هارلم Harlem Renaissance.[20]

**الفانونية الماركسية:** تأثّر فانون بالفكرة الماركسية القائلة؛ أنّ نجاح الثورة الاجتماعية منوطٌ بالتّخلي عن الأساطير المتّصلة بالماضي[21]؛ ولم يرَ فانون في الماركسية نظرية تنتقد الطّرق الرأسمالية المستغلّة للغالبية الكادحة، بل أيضا نظرية ثورية تشجّع على اتّخاذ إجراءات فورية ضدّ الاستغلال والاغتراب.[22]

**الفانونية الملتزمة:** اعتنق فانون مفهوم جان بول سارتر حول "الأدب الملتزم Committedliterature"، متبنّيا النزعة الإنسانية الثورية التي ستُوقف التراث السياسي الراديكالي، ولخّص ذلك في مقولته " أنا جادٌّ وآمل في أن أُقنع أخي، سواء كان أسودا أو أبيض، في أن يمزّق قوته المخزية الفظيعة التي نشأتْ بفعل قرون من سوء الفهم".[23]

## 2 ـ فانون حاضرًا: ما بعد الكولونيالية

يُعرّف إدوارد سعيد قومية فانون في كتاب "الثقافة والإمبريالية" بأنّها "قومية نقدية"، بمعنى أنّها تكوّنت نتيجة وعيٍ بأنّ مجتمعات ما قبل الكولونيالية لم تكن أبدا ،كما وُصفتْ، بسيطة ومتماثلة، بل احتوت على طبقة ضارّة اجتماعيا وتكوينات جندرية تطلّبت الإصلاح بقوّة راديكالية، ففكرة فانون كانت تنصّ على أنه إذا لم يتغيّر الوعي القومي في أشدّ لحظات نجاحه إلى وعي اجتماعي، فالمستقبل لن يحمل التّحرّر بقدر ما سيكون امتدادًا للإمبريالية، فالقادة القوميون الجدد يتحمّسون للبحث عن ثقافة قومية جديدة وُجدت قبل العصر الكولونيالي، وهنا يجد مثقّفو السكان الأصليين مبرّرا شرعيا للارتداد عن الثقافة الغربية التي يخاطرون بالغرق فيها، إلى تجديد الاتّصال مرّة أخرى بالينابيع الأقدم والأكثر سبقا على الكولونيالية لشعبهم، غير أنه يجب تمييز خطر هذا الماضي الذي يمكنه بسهولة أن يتحوّل إلى ميثولوجيا، ويُستخدم لخلق جماعاتِ قوى نخبوية، ظاهرها أنها متجدّدة وباطنها أنها متخفّية[24].

كان فانون مُفتتنًا للغاية بـ إيمي سيزار، الذي روّج لـ "روح الكبرياء السّوداء" في جزر الأنتيل[25]، ففي أواخر عام 1940 لم يكن أنتيلي واحد بإمكانه التفكير بنفسه على أنه أسود، لكن مع ظهور سيزار فقط بدأ إدراك قبول الزّنوجة وعرض مطالبها، فلا توجد قصيدةُ زنوجةٍ أكثر ثورية من قصيدة "العودة" لـ سيزار، ودعوته فيها سكّان جزر الأنديز الغربية إلى إعادة اكتشاف ذواتهم، وما ميّز هذه القصيدة أنها كُتبت بلغة جديدة "فرنسية ـ أنتيلية" أو فرنسية ـ سوداء، تأكّد فيها أن الزنوجة ليست صخرة وليست وعيا بدائيا، بل رحلةٌ خلّاقة توازي مثلما تعارض العودة إلى جحيم المارتينيكي الفقير.[26]

في تقديمه لكتاب "معذّبو الأرض"، يؤكّد جان بول سارتر أنّ أوروبا طمحتْ إلى إدارة الشؤون العالمية بأن تكتب تاريخ الإنسان من خلال صورتها عن ذاتها، ومن ثمّ فقد حطّتْ من قَدَر مؤشرات الثقافة، الآداب، الفنون والعلوم الخاصة بالآخر، ووضعتها في مكانة الفلكلور الشّعبي والأساطير الخرافية، وممارسات السّحر، ومع التّخلص من الاستعمار اعتبر سارتر أنّ المواطنين الجدد قد تَحدّوْا المكانة التي ادّعتها أوروبا بوصفها مُشرّعًا لإرادة العالم ومنفّذًا لوصيته، إضافة إلى كونها المُحكّم الفيصل في القيم والمصالح؛ لذلك طمحت ما بعد كولونيالية فانون إلى المشاركة في صُنع "الحقائق" بناءً على أنماط متميّزة في التعريف وأشكال محدّدة من المعرفة، وتحقيقًا لهذه الغاية فهي تعارض وجهات النّظر العقلانية، الإنسانويةوالكوزموبوليتانية[27]؛ فهذا يوهان هيردر (مواطن كانط ومعاصره) يرى بأنّ أوروبا تحوز من الخصائص الجغرافية والمناخية ما يجعلها أطْيَب وسطٍ طبيعي، ما يخوّلها لأنْ تكون موطن أطيب جنس بشري، لذلك هي وحدها مسرح الحضارة الإنسانية التي تحتكر التقدّم، وينحو مونتسكيو منحًى مشابها حين يجعل من العامل الجغرافي أساس كلّ حضارة؛ فالجنوب موطن الكسل بسبب الحرارة السّائدة والشمال موطن العمل والنشاط بفعل البرودة، لذلك من قدَر الشعوب الجنوبية أن تغزوها نظيرتها الشمالية باستمرار؛ لقد انتقد إدوارد سعيد هذه الرؤى بشدّة في عمله الكلاسيكي "الاستشراق"، حين أوْضح بأنّ الشّرق لم يكتشفه الشرقيون بل بناه الأوروبيون لكيْ يعرّفونه بوصفه عالمًا شرقيا نقيض عالمهم المتقدّم، وفي ذلك أُسْبغت على الدول المُستعمرة صفات السّلبية، الجمود، اللّاعقلانية، القسوة، لكيْ تقابل صورة أوروبا الدّستورية، الدّيناميكية، العقلانية والمُستنيرة، فمن منظور ياسة السّيرة يُعرف هذا بـ "ابتكرْ تَسُدْ" على وزن "فرّق تسد"؛ وممّا يدلّ على أن معيار الحضارة الاستعماري ما زال مستمرّا بقوة في علاقات الدول أنّ النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية لا زال يتضمّن عبارة أمم متمدّنة في مادته الثامنة وثلاثين، وفي هذا الجانب أكّد المؤرّخ الفرنسي-

فرناند برودال أنّ قواعد القانون الدّولي جاءت لتأمين انتشار اقتصاد العالم مُستندةً إلى المبدأ الليبرالي الشهير "دعه يعمل، دعه يمر" وهو ما أفرزَ قواعدًا ومستجدات تناضل دول العالم الفقيرة من أجل تغييرها؛ وفي مقدّمة هذه الدول الجزائر عبر دبلوماسيتها في منظمة الأمم المتحدة، حيث أكّد محمد بجاوي في دراسة نشرتها اليونسكو أن القانون الدولي برز مع معايير وأبعاد محدّدة؛ بعد جغرافي (قانون أوروبي)، بعد عقائدي (المسيحية)، بعد اقتصادي (الماركنتيلية)، بعد سياسي (الاستعمار)[28]؛ إنّه ومثلما قادت فلسفة فانون ما بعد الكولونيالية السياسة الخارجية الجزائرية ،في جانب معتبر منها، بعد الاستقلال، فإنها تقود اليوم الدبلوماسية الشعبية التي تطالب الاستعمار الفرنسي الاعتراف بجرائمه في حق الجزائريين.

**ثالثا ـ تحليل النّتائج:**

من خلال ما سبق، تمّ التّوصّل إلى النتائج التالية:

ـ الفانونية فلسفة جزائرية لها امتداد عالمي، حاضرةٌ على الدوام، ولو ضمنيًا، في الحوار المتوسطي، تعمل على تجاوز متاريس وكوابح القوى الاستعمارية التي تتعامل بمنطق "المعلّم الأخلاقي" وتفرض مشروطية على دول الجنوب؛ الأمر الذي يُتيح تجاوز سطوة النموذج الغربي على العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويعيد الاعتبار للمساهمات المُهملة؛ وهو ما يؤكّد صحة الفرضية الثانية التي طرحتها الدراسة.

ـ تحذّر الفانونية من أنّ تحرّر الشعوب ما بعد الكولونيالية قد يسوقها إلى متاهات الأسْطرة والغرق في ميثولوجيا الماضي، ما يعني أنّ فرضية التحرّر النفسي ليست صحيحة بشكل مطلق.

ـ إنّ جزءًا من مأزق الفانونية يرجع إلى الدّور المُوكل للمثقّف، والذي تصوّره على أنه عنصر ـ ليس مستقرّا في مخطّط التحرير، رغم ذلك لا يمكن إنكار إسهام المثقفين في خلق وعي وطني وثقافة جديدة من شأنها أن تعمل على تهذيب اندفاع الجماهير نحو العنف.

ـ إن توقعات فرانتز فانون لإفريقيا ما بعد الاستعمار أثبتت صحّتها، فالطبيعة غير المكتملة لإزالة الظاهرة الاستعمارية هي التي تزيد من ترويع وتحلّل القارة في الوقت الراهن؛ ما يستدعي ضرورةَ الاستنجاد أكثر بحلول النظرية ما بعد الكولونيالية.

ـ إنّ ميراث الفانونية الأكثر استدامةً هو تناول قضايا وجودية ومعرفية في آنٍ واحد، كتشظّي الهوية وعدم يقين المفاهيم الثنائية الواجب استخدامها لفهم الوضع ما بعد الاستعماري.

**ـ خاتمة:**

تطرّق هذا البحث إلى الفيلسوف فرانتز فانون بوصفه جزائريًا في المقام الأول ومتوسّطيًا تِباعًا؛ وأبرز علاقته بالثورة الجزائرية من خلال رصْد أطروحته حول العنف من جهة، وأنه كان من أوائل مستخدمي المناهج الكيفية في تطوير نظريته حول العلاقة بين العوامل النّفسية والحرية من جهة ثانية؛ كما عَرج البحث إلى الفلسفة الفانونية

ومعالم تحوّلها إلى مقاربة متوسطية منفتحة على باقي الأطر النظرية ومُحاورة للهمينة الغربية ،نظريا وإمبريقيا، عبر إحياء الدراسات ما بعد الكولونيالية التي تعدّ جزائر فانون المنبتَ الفكري لها والقوة الدافعة لنهوضها.

خلُصَ البحث إلى أنّ إصرار فانون على تخيّل المستقبل ورسمه، وجَلْبِ المُبتكر إلى الوجود هو في الواقع إجابةٌ ملموسة عن التراتبية الماضوية التي ما زال الغرب يمارسها في حواره مع الدول المُستعمرة سابقًا؛ ما يؤكّد حقًا حظْوة فانون المستدامة في أي حوار ثقافي متوسطي خصوصا، وإنساني بشكل عام.

**الهوامش:**

[1] ـ نايل، سي غبسون: فانون، المخيلة بعد الكولونيالية، ترجمة خالد عايد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط1، 2013، ص، ص 27، 28.

[2] ـ فرانز، فانون: معذّبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط2، 2015، ص 40.

[3] -James B, South and Kimberly S, Engels (Ed) : Westworld and philosophy, Wiley Blackwell, U.S.A, 1st published, 2018, p, p 229, 236.

[4] ـ فرانز، فانون: معذّبو الأرض، مرجع سابق، ص، ص 43، 44.

[5] ـ نفس المرجع، ص، ص 77، 83.

[6] -James B, South and Kimberly S, Engels (Ed) : Westworld and philosophy, Op. Cit, p 231.

[7] ـ حنّة، أرندت: في العنف، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقي، بيروت، ط1، 1992، ص 82.

[8] ـ فرانز، فانون: معذّبو الأرض، مرجع سابق، ص 121.

[9] ـ نايل، سي غبسون: فانون، المخيلة بعد الكولونيالية، مرجع سابق، ص، ص 213، 214.

[10] - Nigel C, Gibson and Roberto Beneduce : Frantz Fanon, psychiatry and politics, Rowman and Littlefield, London, 2017, p 200.

[11] ـ كمال، بوناب: التدخل العسكري لاعتبارات إنسانية بين التبرير الأخلاقي والتوظيف السياسي، أطروحة دكتوراه علوم في العلوم السياسية، جامعة باتنة، 2017، ص 114.

[12] ـ نايل، سي غبسون: فانون، المخيلة بعد الكولونيالية، مرجع سابق، ص، ص 149، 153.

[13]- Peter, Hudis : Frantz Fanon Philosopher of the barricades, Pluto press, London,1st published, 2015, p, p 57,58.

[14]- Nigel C, Gibson and Roberto Beneduce : Frantz Fanon, psychiatry and politics, Op. Cit, p X.

[15]- Ibid, p 200.

* ـ ويليام دو بويز (1868 ـ 1963) عالم اجتماع، مؤرخ ومفكر أمريكي، يوصف على أنه ابو الوحدة الإفريقية ورائد نظرية مكافحة الاستعمار، كما يُصنّف على أنه مفكر ماركسي ألمعي في التاريخ الأمريكي، انظر: Reiland, Rabaka: Africana critical theory, Lexington books, U.K,2009,p38.

[16] - Reiland, Rabaka : Formas of Fanonism, Lexington books, U.K, 1st edition, 2011, p, p 2,8.

[17] ـ نايل، سي غبسون: فانون، المخيلة بعد الكولونيالية، مرجع سابق، ص 301.

[18] - Reiland, Rabaka : Formas of Fanonism, Op. Cit, p 219.

[19] ـ علوشن، جميلة: خطاب الهامش: فرانز فانون نموذجًا، مجلة الخطاب، المجلد 14، العدد 1، 2019، ص، ص 210، 211.

[20] ـ كمال، بوناب: الإبستمولوجيا النّسوية الأفرو ـ أمريكية، المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، المجلد 04، العدد 01، جانفي 2019، ص 15.

[21] ـ علوشن، جميلة: خطاب الهامش: فرانز فانون نموذجًا، مرجع سابق، ص 210.

[22] -Reiland, Rabaka: Formas of Fanonism, Op. Cit, p 146.

[23] - Ibid, p50.

[24] ـ بيل، أشكروفت وآخرون: دراسات ما بعد الكولونيالية: المفاهيم الرئيسية، ترجمة أحمد الروبي وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، ص 176.

[25] -Reiland, Rabaka: Formas of Fanonism, Op. Cit, p 98.

[26] ـ نايل، سي غبسون: فانون، المخيلة بعد الكولونيالية، مرجع سابق، ص، ص117 ، 118.

[27] ـ سيبا، غروفوغوي: مابعد الاستعمارية، في تيم دان وآخرون (محرّرون): نظريات العلاقات الدولية التخصص والتنوع، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط1، 2016، ص، ص 563، 565.

[28] ـ كمال، بوناب: التدخل العسكري لاعتبارات إنسانية بين التبرير الأخلاقي والتوظيف السياسي، مرجع سابق، ص، ص 68، 69.